تفاعل الملفوظات وسياقاتها في حديث "الإسراء والمعراج" (مقاربة في ضوء لسانيات التلفظ)

أ.د. ربيعة برباق[1] , أ. سارة جابري[2]

[1] أستاذ اللسانيات، جامعة العربي التبسي، تبسة، الجزائر.

[2] باحثة دكتوراه، اللسانيات التطبيقية، جامعة تبسة، الجزائر.Djabri.sara@yahoo.com

الاستلام	٢٠١٦/٦/٣	المراجعة	٢٠١٦/٩/٢٣	النشر	٢٠١٦/١٢/٣٠

الملخص:

تهتم لسانيات التلفظ بربط النصوص والخطابات بما تحيل إليه من عوامل ودواعي إنتاجها، في حين كانت الدراسات البنيوية وما قبل البنيوية قد فصلت بين السياق اللغوي وغير اللغوي، مما جعل من عملية الفهم والتأويل مهمة صعبة، وسيحاول هذا البحث أن يجعل فهم وتأويل حديث الإسراء والمعراج أمرا أسهل من خلال النظر في أصناف الملفوظ وخصائصه اللغوية، وكيفية دلالتها على السياقات التي أحاطت بالرسول صلى الله عليه وسلم قبل وخلال وبعد الحادثة، وذلك لما وجدنا في حديث الإسراء والمعراج صورة واضحة لدور هذه السياقات، حيث كانت مؤثرا إيجابيا في تشكل الملفوظات وتنوعها.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

The Enunciables and its contexts interaction in the say of “elisrae wa elmierag”. (Linguistics inonciational Approach)

Dr. Rabea Berbak[1], Dr.Sara Gabry[1*]

[1] Professor of linguistics, Al-Araby Al-Tebsy University, Tebessa, Algeria.

[*] Djabri.sara@yahoo.com

Received	3/6/016	Revised	23/9/2016	Published	30/12/2016

Summary:

Bother to linguistics pronunciations linking texts and speeches, including transmit factors and reasons of production, while the structural studies and pre-structuralism has separated the linguistic context and non-linguistic, making the understanding and interpretation process a difficult task, and this research will try that makes understanding and interpretation talk "Elisraee wa Elmieerag "of awer prophet Mohammed is easier by looking at ejected varieties of language and its characteristics, and how its significance on the contexts in which it took the Prophet, peace be upon him before, during and after the incident, so what we found in an interview with Flowers and a clear picture of the role of these contexts, where she was positively influential in the forms of spokens and it,s variety.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

تمهيد:

يعد السياق أحد المنطلقات التي ارتكزت عليها نشأة اللسانيات الاجتماعية واللسانيات التداولية باعتبارها اتجاها لسانيا يؤمن باستحالة دراسة اللغة معزولة عن محيط استعمالها وبيئة تداولها، كونها في أساسها وسيلة تواصل.

يقول باختين: "إن المقال الإجتماعي المباشر وكذا المحيط أو الوسط الاجتماعي الشامل هما اللذان يحددان بنية التلفظ كليا" [1]، ومن هذا المنظور تكون العلامات اللغوية معرضا أو مسرحا لتصارع القوى الاجتماعية المختلفة [2]، والتي تجعل منها نظاما متفاعلا ومتجانسا منطقيا وفكريا.

وما دامت اللغة في جوهرها ظاهرة إنسانية اجتماعية، فلا يمكن الحكم على دلالات ومقاصد ما تنتجه من نصوص وخطابات بمجرد النظر في بنيتها الصوتية والصرفية والتركيبية، ومن هذا المنطلق أولت لسانيات التلفظ عناية واضحة بالسياق، بدءا بدوره في صناعة الحدث الكلامي وتوجيه دلالاتها وانتهاء بدوره في تحليله وتأويله، وبذلك تكون قد قدمت منهجا جيدا لمقاربة مختلف النصوص.

ويعد الحديث النبوي الشريف، على اختلافه عن بقية النصوص لقداسته وسمو رسالته، مدونة ثرية من جانبها السياقي، فطبيعة ملفوظاته وظروف إنتاجها تقتضي دراسة تعبر بنا إلى السياق، وتسبر أغواره، انطلاقا من المعطيات التي تقدمها لنا أنساقه اللغوية المختلفة.

وحديث الإسراء والمعراج واحد من هذه النصوص التي تعطينا صورة جليّة لمدى تفاعل الملفوظات وسياقاتها اللغوية على اختلافها، ومدى دلالتها وإحالتها على السياقات غير اللغوية التي تفسرها تفاصيل تلك الحادثة، وهذا ما سنحاول بيانه في ثنايا هذا البحث.

1. لسانيات التلفظ وعنايتها بالسياق:

1.1. مفهوم التلفظ وعلاقته بالسياق: هو "نشاط لساني مدروس وقصدي يعمد من خلاله إلى إبلاغ سوي، وتحقيق تواصل فاعل بين أفراد مجموعة ما، وتشارك في عملية التلفظ محفزات داخلية وخارجية، فأما الداخلية فطاقات وقدرات الفرد، وأما الخارجية فالسياقات والظروف...الخ المحيطة بهذا الفعل الإنتاجي، والتي تتجلى ملامحها في المنتج اللغوي المحقق بالتلفظ" [3].

فالتلفظ نشاط عملي مقصود وواع تتحكم فيه عوامل داخلية ذاتية وأخرى خارجية موضوعية أو سياقية.

وقد اتجهت اللسانيات المعاصرة إلى دراسة الخطاب باعتباره مجموعة من الملفوظات، فلسانيات التلفظ تجاوز اللسانيات البنيوية إلى السياق، تقول **باتريشيا فان هي (Patrisya Van He)**: "اللسانيات تهتم بالإنتاج اللغوي العملي القاعدي أو يرسمه التنظير، بل تأخذ في اعتبارها المنتج وأحواله والمنتج وظروفه،

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

والمنتج إليه وشروط قابليته وعوامل تحفيزها"[4]، وهذا يعني أن لسانيات التلفظ تعنى بعملية إنتاج الملفوظات وما يستلزمه هذا الإنتاج من عوامل.

ويظهر في تعريفها هذا تركيزها على مدى تفاعل عناصر كثيرة في صناعة الملفوظات وانتاجها، وليس من السهل تجاوز تلك العناصر، وقد حددها **بنفنيست** (**E, Benvinist**) [5] في (الزمان والمكان والمتكلم والمخاطب) فتفاعل الشخص مع غيره ومع المكان والزمان يكون سياقات فكرية ونفسية واجتماعية ودينية... تتمظهر بشكل جلي أو خفي في السياق اللغوي.

2.1. مفهوم الملفوظ وعلاقته بالسياق: الملفوظ تابع لفعل التلفظ، و"هو كل متوالية محددة من كلمات لغة ما أنتجها شخص أو مجموعة أشخاص، كما يمكن أن يكون الملفوظ جملة أو مجموعة جمل" [6].

وبذلك يكن القول: إن الخطاب هو ملفوظ أو مجموعة من الملفوظات، وأن الملفوظ هو متوالية لغوية ضمن سياق تلفظي معين.

2. السياق أنواعه وأشكال تفاعله:

1.2. مفهوم السياق: السياق في لغة العرب من مادة (سوق)، فقد ورد في مقاييس اللغة "السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حذو الشيء، يقال ساقه ويسوقه سوقا والسيقة، وما استيق من الدواب، ويقال سقت امرأتي صداقها، وأسقته، والسوق مشتقة من هذا لما يساق إليها من كل شيء، والجمع أسواق، والساق للإنسان وغيره، والجمع سوق، إنما سميت بذلك لأن الماشي ينساق إليها" [7].

فالسياق في اللغة العربية يعني الحذو والمصاحبة، فالرجل يذهب إلى امرأته مصطحبا المهر، والرجل يذهب إلى السوق مصطحبا بضاعته... وهكذا.

أما السياق في اصطلاح اللسانيين فهو البيئة اللغوية وغير اللغوية المحيطة بالوحدة اللغوية، سواء أكانت صوتية أو صرفية أو تركيبية.

وقد استخدم مصطلح السياق مقابلا للمصطلح الأجنبي (contexte) والذي يعرفه معجم تحليل الخطاب بقوله: "إن السياق كل عنصر س هو مبدئيا كل ما يحيط بهذا العنصر، وعندما تكون س وحدة لغوية (صوتم، وصرفم، كلمة، ملفوظ) فإن محيط س يكون في الآن نفسه من طبيعة لغوية (المحيط اللغوي) وغير لغوية (السياق المقامي الاجتماعي الثقافي)" [8].

فالمعنى الاصطلاحي للسياق لا يخرج عن أصله اللغوي فهو منقول عنه، فكل حدث كلامي يصاحبه مجموعة من الملابسات والمعطيات اللغوية وغير اللغوية.

2.2. أنواع السياق:

من خلال التعريف الاصطلاحي للسياق يظهر أنه على نوعين هما:

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

1.2.2. السياق اللغوي (الداخلي): وهو تجاور الوحدات اللغوية من مفردات وتراكيب وكيفية تنظيمها وتسلسلها وتصاحبها، أي علاقاتها بعضها ببعض في الحدث الكلامي، ويكون لهذه العلاقات دور بارز في تمييز المعاني وتوضيح الدلالة.

ويطلق عليه قاموس اللسانيات مصطلح (L'environnement) ويعرفه بأنه مجموع العناصر اللغوية التي تسبق أو تلحق وحدة لغوية معينة ضمن تركيب معين [9].

2.2.2. السياق غير اللغوي (الخارجي): وهو مجموع الظروف والملابسات الاجتماعية التي تصاحب الحدث الكلامي [10]، أو بتعبير آخر مجموع الظروف المصاحبة للحدث الكلامي، أو الشروط الاجتماعية والنفسية والثقافية المرتبطة باستعمال اللغة في مقام تواصلي معين.

ونميز في السياق الخارجي بين معطيات مادية تتعلق بمقام الحدث اللغوي، كالإطار المكاني والزماني والحضور وأشياء أخرى، تصنف ضمن سياق الموقف، وتصدق عليه عبارة "لكل مقام مقال". ومعطيات اجتماعية كالعادات والمعتقدات، وغير ذلك مما تصنف ضمن السياق الاجتماعي أو الثقافي. ومعطيات أخرى ذاتية كالخوف والتشاؤم والحزن وغيرذلك مما تتعلق بالسياق النفسي.

3. أصناف الملفوظ وتشكل السياق اللغوي :

قبل الحديث عن تفاعل الملفوظات وسياقاتها المختلفة، يجدر بنا فهم العلاقات التي تربط بين عناصر التلفظ من دوافع وأفعال وسياقات... الخ.

1.3. دورة إنتاج الملفوظات وتأويلها وآلية عمل المعينات:

يمثل كل ملفوظ بمختلف مظاهره سياقا لغويا تحكمه قواعد موزعة حسب مستويات اللغة، ويتجاوز الملفوظ أفق السياق اللغوي إلى سياقات غير لغوية فتعمل مع بعضها بصورة تفاعلية عكسية على النحو الآتي:

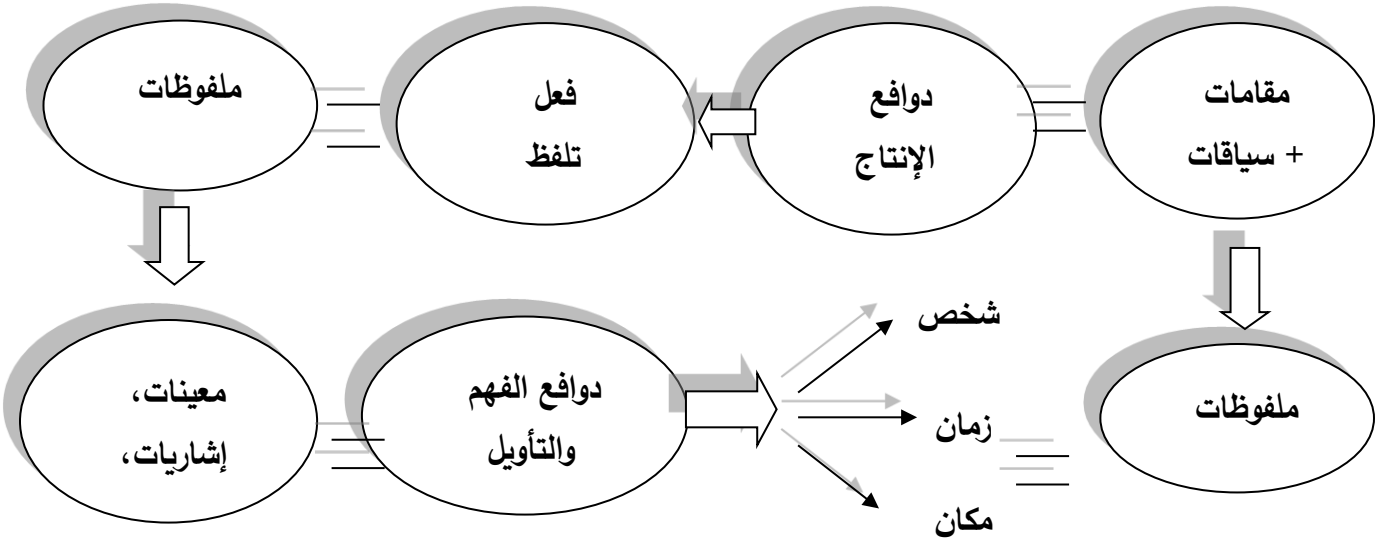

دورة إنتاج الملفوظات وتأويلها وآلية عمل المعينات

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

وتختلف الملفوظات باختلاف الظواهر التي تعمل على نقلها والتعبير عنها، ويؤدي هذا الاختلاف إلى تجلي الخصائص اللغوية الأكثر بروزاً في كل ملفوظ، ويحمل هذا الملفوظ صنفه وصفته من خلال هذه الخصائص.

2.3. أصناف الملفوظات: الملفوظات أصناف كثيرة نذكر منها:

1.2.3. ملفوظات أحادية التمظهر:

يقصد بهذا النوع تلك الملفوظات التي تدل على ظاهرة لسانية أو تداولية أو تعبيرية واحدة، وفيها:

- **الملفوظ الوصفي:** تعد ظاهرة الوصف أولى الظواهر اللغوية والفكرية، التي يعمد إليها الفرد –على اختلاف المستويات- خلال تعبيره، ويرجع السبب في ذلك إلى ما يوفره الوصف من تقريب للأفكار والمعاني، وتكشف العلامات الوصفية للملفوظ على دلالات خفية ومرجعيات داخلية وخارجية لا يمكن أن يكشف عنها سواه،[11] كما تحدد سمات في المتلفظ والملفوظ وتربطها بسياقها، بسبب ما تحمله الشحنات الوصفية داخل الملفوظ.
- **الملفوظ الإسنادي:** يرجع مصطلح الإسناد إلى المنطق، وهو اقتران ذات فاعلة، يمكن أن تكون الذات عنصرا أساسا، ويكون الموضوع مكملا وكاشفا عن متعلقات الذات، ويخرج المفهوم الإسنادي من عالم التفكير المنطقي إلى أفق التعبير اللساني، فتكون ظاهرة الإسناد اللغوي بين العناصر متمظهرة في عدة أشكال نحوية مختلفة حسب مقتضيات الاستعمال.

أما عند **جميل الحمداوي** فالملفوظ الإسنادي هو: «الملفوظ الذي يحدد علاقة الذات بالموضوع، أو هو الذي جمع بين المسند والمسند إليه، ويقصد به امتلاك القيم، ومن ثم المسند قد يكون مبنيا للمعلوم أو للمجهول أو خبرا، والمسند إليه قد يكون فاعلا أو نائب فاعل أو مبتدأ » [12] . مثل عوقب المذنبون، ووصل الأمر نهايته.

- **الملفوظ الانزياحي:** إذا كانت ظاهرة الإسناد قد كشفت عن نموذج القاعدة العامة التي تحكم الوحدات اللغوية للملفوظ، فإن ظاهرة الانزياح تقضي بتغيير تلك القواعد والتصرف فيها حسب الغايات التي يخدمها تجاوز الحدود النظرية [13].

وظاهرة الانزياح مفهوم لساني وأسلوبي أثبت ما جاءت به لسانيات التلفظ والتداولية لطرحه، وهو العناية باللغة في حيز الممارسة الأوسع، يقول **حمداوي** بهذا الصدد: « كل ملفوظ ينتهك (يتجاوز) القواعد المألوفة أو قواعد المعيار لوظائف فنية جمالية وإبداعية، وبهذا نكون أمام عدة أنواع من الانزياحات، صرفي، نحوي، دلالي، بلاغي، وانزياح منطقي تداولي. [14]، ومثالنا في ذلك التقديم و لتأخير في قولنا "هذب جيادا أبوه" (تقديم المفعول به وتأخير الفاعل).

- **الملفوظ القضوي:** ويعرفه الهادي السنوسي، بقوله: "يقصد بالملفوظ القضوي تحول الملفوظات إلى مجموعة من القضايا المرتبطة بالإسدال والحجاج المنطقي القضوي، وقد تكون تلك القضية المتكونة من ذات وموضوع موجبة أو سالبة، ويرجع ذلك إلى علاقة النتيجة بالسبب"[15]. كقولنا وبعد انتهاء الحوار أكد صدق موسى، فالصدق قضية وموحرها موسى، وهي قضية موجبة.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

- **الملفوظ المتوازي:** ويقصد بالتوازي تكافؤ الوحدات اللسانية إما تكافؤ تاما أو جزئيا، والملفوظ المتوازي عند **جميل حمداوي** هو: «توازي العبارات أو تجانس على مستوى الآلية أو الوظيفة أو الدلالة» [16] ، وتختلف صور هذا التوازي حسب المستويات اللسانية.
- **ملفوظ التضام:** ويعني تضام المكونات النحوية استلزاما وحذفا وذكرا، وهكذا يتضام الفعل والفاعل، المبتدأ والخبر، الجار والمجرور، النعت والمنعوت، المعطوف والمعطوف عليه، وهذا المفهوم استند فيه **جميل حمداوي** إلى كتاب اللغة العربية مبناها ومعناها، لـ**تمام حسان** [17]. ويكشف عن صور التلازم النحوي والتعالق بين العناصر الثابتة في الجمل والتوابع، ومدى تأثير هذه الظواهر في بقية المستويات الأخرى، خاصة الدلالة، وبقية الوظائف اللغوية وخاصة التعبيرية والجمالية... فاللغة مبنى ومعنى، ولكل ظاهرة في مستوى المبنى تعليلها على مستوى المعنى.

2.2.3. ملفوظات ثنائية التمظهر:

تشمل كل أصناف الملفوظات السابقة تمظهرا واحدا، في حين تمثل الملفوظات ثنائية التمظهر ملفوظات تجمع بين ظاهرتين لغويتين أو تداوليتين، وقد تكون العلاقة بينهما إما علاقة تكامل أو تخادم أو تناقض أو اتحاد، وهذه الملفوظات هي:

- **الملفوظ الذاتي والملفوظ الموضوعي:** تشبه هذه الفكرة في جانب معين فكرة **"إيميل بنفينست"** المتمثلة في حضور الذات في الخطاب والنص ومدى اشتراكها في إنشاد مضامين الملفوظات، وهذا المفهوم لا يختلف مطلقا عن المفهوم العام للذاتية والموضوعية، ويشرح **حمداوي** ذلك قائلا: «يتميز الملفوظ الذاتي عن الموضوعي بحضور الذات وتحول النص إلى انفعالات دالة على حضور المتلفظ إلى جانب وجود تقويم بأحكام إيجابية أو سلبية، في حين يتميز الملفوظ الموضوعي بغياب الانفعالات داخل المتن»[18]. فالذاتية تحمل فكرة المشاركة والموضوعية تحمل فكرة المراقبة.
- **الملفوظ الصريح والملفوظ الضمني:** وهذا المفهوم شائع في جميع ميادين التحليل اللغوي، لأن اللغة لا تعني المذكور فحسب، فللمحذوف أيضا دلالات ومفاهيم غير مباشرة، وتحصل منه إفادة لا تقل أهمية عن دلالات وإفادات المذكور[19]. كقولنا التزم بشرف العمل، ونفهم منه عدم خيانته.
- **الملفوظ الحسي والمجرد:** التجريد والتجريب ميدانان ومنهجان فلسفيان أثبتا تقسيم المدركات في هذا العالم، وما دام المتلفظ ينتمي إلى هذا العالم ويعبر بأدلة لغوية وغير لغوية لها مرجعيتها وسياقاتها، فالمتلفظ (المنتج) أمام ملفوظ دلالة، إما أن تكون حسية أو مجردة، وهي في الحالتين تمثل مرجعية في جملة السياقات التي أنتج فيها الملفوظ، وهي ذات الفكرة التي أشار إليها الحمداوي قائلا: «...وتكون الملفوظات حسية أو مجردة حسب السياقات النصية التي وردت فيها » [20]. مثل الصدق زينة في الخلق والابتسامة زينة في الخلق.
- **الملفوظ الجسدي والإيمائي:** في تلك النصوص التي ترصد تجارب فردية أو جماعية يهتم المتلفظ بالجوانب التعبيرية التي يمكن أن تكون هي الأخرى ذات أغراض وأهداف رسائلية، ومن نحو ذلك ما تحدثه لغة الجسد من تعابير سواء كانت بالحركات الصادرة عن المتلفظ ذاته إما عن شخص أو مجموعة ، كما أن الجسد ومواصفاته دون تعبير إيمائي يمكن أن تؤدي

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

وظائف تقريب وتصوير وإخبار[21] إذا أحسن المصور النقل، إذا الملفوظ يمكن أن يكون صورة لغوية مختزلة عن شخص أو سلوك...

وما دام للجسد هذا الدور الفعال في التعبير ونقل الأفكار والسلوكات، فإن الملفوظات ينبغي أن تؤدي دورها التعبيري كذلك، يقول **الحمداوي**: «تتضمن النصوص ولا سيما السردية والقصصية ملفوظات إيمائية في شكل حركات وإشارات وأنساق بصرية صريحة أو ضمنية، ومن ذلك لا يهتم الملفوظ بما هو لساني»[22]. مثل قولنا: وقف رجل طويل القامة ولوح بيمينه.

- **الملفوظ الزماني والمكاني:** إذا كانت لسانيات التلفظ تركز على تحليل الملفوظات إلى عناصرها المكونة للحدث والمحتوية لها، فإن عنصري الزمان والمكان من أهم عناصر الملفوظات،[23] وهو ما تقدم ذكره، ولا تكتفي لسانيات التلفظ برصد عناصر الزمان والمكان فحسب، بل تكشف عن صور التفاعل بين هذين العنصرين في إنتاج الحدث ودورهما في هذا الإنتاج.

4. أصناف الملفوظ في أحاديث الإسراء والمعراج:

إن تنوع أصناف الملفوظ في أحاديث الإسراء والمعراج، يعكس تنوعا في الطاقات التعبيرية للنبي الكريم؛ وكما يبين حسن توظيفها وتفاعلها مع ملابسات ومقتضيات التلفظ، وبيان ذلك على النحو الآتي:

1.4. ملفوظات أحادية التمظهر :

1.1.4. الملفوظ الوصفي: يعد الوصف واحدة من أبرز آليات التعبير البارزة في أحاديث النبي ﷺ بشكل عام، كما يأخذ مساحة واسعة في أحاديث الإسراء والمعراج لكثرة المشاهد والمواقف، لذلك ارتأينا أن نقف عن الوصف في عدة مظاهر هي:

- **مظهر وصف الجماد:** كوصفه للآنية التي غسل فيها قلبه عليه الصلاة والسلام: «أُتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ إِيمَانًا»[24] ، وكذلك وصفه للعير التي لقيها في الطريق إلى بيت المقدس: «وثَنِيَّةُ التَّنْعِيمِ عَلَيْهَا جَمَلٌ أَوْرَقُ عَلَيْهِ غِرَارَتَانِ إِحْدَاهُمَا سَوْدَاءُ وَالْأُخْرَى بَرْقَاءُ...»[25] .
- **وصف الأنبياء:** وذلك في حديث مستقل عن حديث الإسراء والمعراج المفصل حيث، يقول: رَأَيْتُ مُوسَى وَإِذَا هُوَ رَجُلٌ ضَرْبٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ ، وَرَأَيْتُ عِيسَى ، فَإِذَا وَ رَجُلٌ رَبْعَةٌ أَحْمَرُ كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ ، وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَبِهِ »[26] .
- **وصف يوسف عليه السلام:** «فَإِذَا أَنَا بِرَجُلٍ أَحْسَن مَا خَلَقَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ قَدْ فَضَلَ النَّاس فِي الْحُسْن كَالْقَمَرِ لَيْلَة الْبَدْر عَلَى سَائِر الْكَوَاكِب »[27].
- **وصف الجنة والنار:** أهم ما وصف النبي ﷺ في الجنة نهر الكوثر الذي أعطاه إياه فقال عنه، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «بَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ فِي الْجَنَّةِ إِذَا أَنَا بِنَهَرٍ حَافَتَاهُ قِبَابُ الدُّرِّ الْمُجَوَّفِ ، قُلْتُ مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ قَالَ هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَ رَبُّكَ فَإِذَا طِينُهُ أَوْ طِيبُهُ مِسْكٌ أَذْفَرُ...»[28] .

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

وفي هذا الوصف لمسة جمالية؛ فالنهر موجود بذاته وتلك صفاته، لكن دقة النقل وتقريب الصورة يؤدي وظيفة جمالية للملفوظ، فمثل الوصف بذلك ملفوظ ترغيب وجذب. وفي المقابل وصف الرسول ﷺ النار قائلا بعد أن أمر جبريل مالك خازنها أن يريها للنبي ﷺ: «فَكَشَفَ غِطَاءَهَا فَفَارَتْ وَارْتَفَعَتْ حَتَّى ظَنَنْتُ لَتَأْخُذَنَّ مَا أَرَى ، قَالَ: فَقُلْتُ لِجِبْرِيلَ مُرْهُ فَلْيَرُدَّهَا مَكَانَهَا ، فَأَمَرَهُ فَقَالَ لَهَا: أُخْبِي فَرَجَعَتْ إِلَى مَكَانِهَا الَّذِي خَرَجَتْ مِنْهُ ، فَمَا شَبَّهْتُ رُجُوعَهَا إِلَّا بِوُقُوعِ الظِّلِّ...»[29] .

وقد جاء التشبيه والوصف دقيقا، كما في سابقه، لكنه هنا لغرض الترهيب، فإذا كانت رؤية النار وسماع الصحابة عنها بهذا الوصف فكيف بعذابها ؟

أما في الحكم عن هذين الوصفين فنلاحظ الآتي:

- ملفوظات وصف الجنة جاءت أسماء وثوابت دلالة على الاستقرار.
- ملفوظات وصف النار جاءت أفعالا متوالية لتدل على الهيجان.

- **وصف سدرة المنتهى:** جاء وصف سدرة المنتهى متعلقا بوصف أنهار نابعة عن أصلها، ومثلت لوحدها مشهد تأمل يطرح السؤال عن علاقة الأنهار بالسدرة، بل هي حكمة قبل أن تكون سؤالا لما فيها من التأمل والتدبر، وذلك في قوله ﷺ: «ثُمَّ رُفِعَتْ إِلَيَّ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى وَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ، نَهْرَانِ بَاطِنَانِ وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ ، فَقُلْتُ مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ ، قَالَ أَمَّا الْبَاطِنَانِ فَنَهْرَانِ فِي الْجَنَّةِ ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالنِّيلُ وَالْفُرَاتُ»[30] .

ودقة التصوير في هذه المشاهد واضحة، فكأن المستمع أو القارئ يعايشها؛ غير أن من الظواهر –أيضا- ما لم يصفه النبي ﷺ، بل وعبر عن عدم وصفه، وذلك وصف في حد ذاته، وهذا ما ورد في:

- الحديث عن مالك خازن النار: «إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَضْحَكْ وَلَمْ أَرَ مِنْهُ مِنَ الْبِشْرِ مِثْلَ مَا رَأَيْتُ مِنْ غَيْرِهِ » [31].
- وصف المعراج: «لما فرغت مما كان في بيت المقدس أتي بالمعراج ولم أر شيئا قد أحسن منه» [32]، حيث اكتفى النبي بذكر الحسن، ولم يذكر تفصيلا.

ونلاحظ من خلال وصفه ﷺ للأنبياء، اعتماده الوصف العام دون تفصيل، كما نلاحظ من ناحية ثانية أن الكتب القديمة، التي وردت فيها أوصاف الأنبياء تتطابق إلى حد بعيد مع الأوصاف التي ذكرها، وهو دليل على الصدق وثبات التجربة فعلا.

- **وصف المعاقبين:** ورد في صحيح البخاري حديث **لسمرة بن جندب** -رضي الله عنه- بين فيه بعض المشاهد التي لقيها النبي ﷺ ليلة الإسراء به إلى الأرض المقدسة منها: «وَإِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ وَإِذَا هُوَ يَهْوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ فَيَثْلَغُ رَأْسَهُ...»[33] .

وقوله: «فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِكَلُّوبٍ مِنْ حَدِيدٍ...»[34] ، ثم عبر عن هذه الأوصاف بما يقابلها من سيئات الأعمال، فالأول من يرفض القرآن وينام عن الصلاة، والثاني الرجل الكاذب...

والجدير بالذكر أن قيمة الوصف هنا، وفي مواضع أخرى ليست في رسم الرسول ﷺ للمواصفات من ذاته، بل في دقة نقل ما رآه، لما في ذلك من عبر، فالوصف هنا نقل توجيه وتنفير من سوء العمل.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

2.1.4. الملفوظ الإسنادي:

نبدأ بالإسناد المنطقي، حيث تعلق موضوع الإسراء والمعراج بذات واحدة ومقصودة، هي شخص الرسول ﷺ، إذ تبدو الحادثة محور ارتكاز الحديث، ومثل النبي الكريم المقصود بهذه الحادثة من جهة والمعبر عنها من جهة ثانية.

فعلى هذا الأساس تجلت جميع ظواهر الإسناد النحوي، فكانت الجمل المعبرة عن ذات النبي الكريم إسنادات هو فاعلها، وكانت إسنادات الموضوع إسنادات فاعلها هو الله تعالى بتنفيذ من الملائكة، وكان المقصود من هذه الأعمال الذات (سيدنا محمد).

3.1.4. الملفوظ الانزياحي:

جاءت الانزياحات في حديث الإسراء والمعراج قليلة، لكنها مع ذلك معبرة، فمن أمثلة ذلك: الفصل بين الفاعل والمفعول به بجار ومجرور كقوله: «فَجَلَا اللَّهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ »[35] ، إذ نلاحظ أن الفاعل هو الله والمفعول هو بيت المقدس وبينهما ضمير المتكلم المسبوق بحرف الجر، ودلالة ذلك أهمية النبي ﷺ، إذ كان فعل الجلاء لأجله.

ومثال ذلك أيضا: تأخير الصفة عن مرتبتها الموالية للموصوف مباشرة، في وصفه للبراق قائلا: «ثُمَّ أُتِيتُ بِدَابَّةٍ دُونَ الْبَغْلِ وَفَوْقَ الْحِمَارِ أَبْيَضَ» [36] ، فالملاحظ أن النبي ﷺقدم حدود الماهية على صفة اللون لأنها أهم في التحديد، وهو ذاته ما حدث في سورة البقرة، فرغبة بني إسرائيل في تعريف البقرة كانت بتعيين الماهية ثم صفة اللون، وهو ما أثبته القرآن الكريم في قوله تعالى: «قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ﴿68﴾»، ثم قال: {قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴿69﴾}[سورة البقرة الآية: 69/68].

أما ظاهرة التقديم فكانت عند حديثه ﷺ عن أول سماء (السَّمَاءَ الدُّنْيَا)، عندما أخر المبتدأ وقدم الخبر شبه الجملة بقوله: «إِذَا فِيهَا آدَمُ»[37] للتأكيد على مكان تواجده عليه السلام، خاصة أنه فصل بين وصوله إلى السماء الدنيا وهذه الجملة بحوار جبريل مع غيره من الملائكة.

وهناك صورة أخرى من صور الانزياح، وذلك عندما حذف الخبر في بقية الملفوظات المعبرة عن الأنبياء في بقية السماوات، كقوله: «فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيس»، «فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى»[38] ، إذ غدا واضحا أن في كل سماء نبي.

أما في جانب الانزياح المعجمي والدلالي فقد استعمل الرسول الكريم مفردتين غير عربيتين هما: (طَسْت، ديماس) الأولى بمعنى الآنية، والثانية بمعنى الحمام، وهذا دلالة على تطويع اللغة لغايات تلفظية، فلو لم تكن العبارتان أليق وأكثر تعبيرا وأدرج معنى لدى الصحابة ما بدا الاستعمال عاديا عند الكثير منهم، فبعض الرواة شرحوا العبارة والأغلب فهمها.

وقد كانت أهم حالات الانزياح الملفوظي هادفة إلى تقوية المعاني، ووضع الألفاظ في دائرة الاستعمال الأكثر تعبيرا ودلالة.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

4.1.4. الملفوظ المتوازي:

وسنحاول عرض الملفوظات في حديث الإسراء والمعراج في شكل متواز، والكشف عن مدى التطابق فيها:

– **تطابق كلي:** وتمثل هذا الصنف في تكرار بعض العبارات لفظا ومعنى مثل: «فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فَرَدَّ» التي تكررت في كل سماء ومع كل نبي. وكذلك عبارة: «فَلَمَّا خَلَصْتُ»[39] التي كان يذكرها عند الوصول لكل نبي، فالعبارات متطابقة لفظ ومعنى ودلالة.

– **تطابق جزئي:** ويتمثل في تشابه بعض العناصر في سمات واختلافها في أخرى، كتشابه الفعل: أَتيت- أُتيت، إذ تشابهتا في البنية الصوتية نوعا ما واختلفتا في المعنى والوظيفة ودليل ذلك ورودهما في السياق: «أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ »، «أُتِيتُ الْبُرَاق»[40] ، فالأولى جاءت مرادفة للفعل وصل، والثانية جاءت بمعنى منحت ووهبت، ويدل ذلك على مرونة الأداء الملفوظي وتنوعه لدى النبي الكريم. وبين الصنفين الأول والثاني نلاحظ:

✓ أن التطابق الكلي جاء في مقام لساني يقتضي التعبير عن المواقف بشكل متواز ومتساو، لتساويها وتشابهها.

✓ التطابق الجزئي عبر عن تشابه المواقف في اندراجها ضمن سياق عام واحد ثم تنوعها من ناحية كل تفصيل.

5.1.4. ملفوظ التضام:

إن مجرد القول بوجود نص أو خطاب يدل دلالة قاطعة على وجود ظاهر تضام ملفوظي؛ إذ نحن لسنا بصدد الكشف عنها، بل بصدد تقييمها من خلال بعض العلاقات وأبعاد تشكلها تواصليا وجماليا...، وسنبرز ذلك في ما يلي:

- الفاعل من مادة الفعل: استعمل النبي ﷺ هذا النوع من التضام، حيث وظف ملفوظات فعلية فعلها مشتق منها وعلى صيغة اسم الفاعل كقوله: «أتاني آت»[41] ، «نادى مناد»[42] ، ولهذه الملفوظات دلالة مهمة منها:
  - اتصاف هوية الفاعل بالخفية.
  - لفت انتباه المخاطب لقيمة الفعل وفاعله.
  - امتياز الفعل بقيمة وطبيعة مختلفة.
- **الخبر جملة اسمية:** في هذه الصورة من صور التضام تبدو لنا الملفوظات متسعة مفصلة أكثر، ومن ذلك قوله: «فَإِذَا نَبْقُهَا مِثْلُ قِلالِ هَجَرَ وَإِذَا وَرَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الْفِيَلَةِ »[43] ، وهذا ما وصف به سدرة المنتهى، فيكون الخبر جملة يدل على الرغبة في التفصيل، وكون المصور من طبيعة المصور كلاهما جامدان مجسدان، وتبقى صورة التجسيد ذات بعد جمالي خاصة وأنها صورة بيانية (تشبيه) قائم على مناسبة المشبه للمشبه به.
- **التعريف ووظائف التعيين:** وردت في الأحاديث الشريفة المنتقاة للدراسة عدة حالات تضام قائمة على الإضافة.

وكان من وظائف ذلك التعيين والتحديد، كقوله ﷺ: «ثُمَّ ذُهِبَ بي إلى سدْرَة المُنتهَى»[44] ، ففي ذلك تحديد وتعيين لشيء لم تحصل معرفته سابقا، وستحصل معرفته من حين تعريفه، ذلك التعريف الذي تم بالإضافة، فكلمة المنتهى إضافة تبين معنى النهاية، والحد الأقصى.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

وكذلك قوله: «السَّمَاءَ الدُّنْيَا»[45] فصفة الدنيا عرفت السماء، وتم تعريف السماء الأولى بما هو مضاف إلى رتبتها، وفائق فيها، وهو الدنيا، وقد ذكر هذا في القرآن الكريم مرارا ومن ذلك قوله جل وعلا: «وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴿05﴾»[سورة الملك الآية: 05].

2.4. الملفوظات ثنائية التمظهر في أحاديث الإسراء والمعراج:

1.2.4. الملفوظ الذاتي والملفوظ الموضوعي:

أفضى تحليلنا لجوانب الملفوظ القضوي إلى كون القضية عموما قائمة على (ذات وموضوع)، وعلمنا مدى تجلي هذين العنصرين في شكل ملفوظي وأداء تلفظي، في حين سنكشف في هذا الصنف عن العلاقة القائمة بين الملفوظ الذاتي والموضوعي من زاوية ثانية.،وهي مشاركة الذات في الأفعال والأحداث من عدمها من خلال:

- **الملفوظ الذاتي:**

مثلت ذات النبي ﷺمحور الحدث وركيزة الخطاب، ولما كانت بهذه الدرجة من الأهمية، جاءت الملفوظات الذاتية كثيرة ومعبرة عن صور مختلفة للذات، ومنها:

– **ذات اكتشاف:** كقوله ﷺ: «إِنِّي رَأَيْتُ مُنْذُ اللَّيْلَةِ عَجَبًا، مَاذَا الَّذِي رَأَيْتُ؟».[46] إذ يبدو من خلال هذا الملفوظ غبة النبي الكريم في معرفة تأويل ما رآه من مشاهد تعذيب (الزناة، آكلي الربا، والكذابين) فمقام التلفظ هنا مقام رغبة في الكشف عن حقائق؛ لأن وجودها يضيف الي ذات.

– **ذات مكلفة:** النبي ﷺ بوصفه رسولا مكلف بطبيعته، وجاءت حادثة الإسراء والمعراج لتعزز ذلك التكليف من خلال فرض الله جل وعلا الصلاة، ومن الملفوظات الدالة على ذلك: «ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ الصَّلَوَاتُ».[47]

و الملاحظ أن هذا التكليف أخذ بعدا آخرا، وهو بعد استفادة النبي الكريم من سيدنا موسى -عليه السلام- وبعد التواصل مع الله جل وعلا، وهذا البعد المناسب لطبيعة الصلاة عموما، فسائر البشر وهم يصلون يقيمون صلة بينهم وبين الله تعالى.

- **الملفوظ الموضوعي:** من الملاحظ أن شخص النبي ﷺ رغم حضوره الحدث إلا أنه اكتفى في بعض المواقف بالرصد الموضوعي، والنقل للأفعال والأقوال دون مشاركة في صنع الأحداث ولا في التعبير، ويتجلى ذلك في ما يأتي:

– **الرصد الموضوعي:** يبدو هذا الرصد جليا في بعض المواقف التي صورها الرسول الكريم كما هي، مثل ما رآه وهو في الطريق إلى بيت المقدس قال: «إِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ الْحَجَرُ هَا هُنَا فَيَتْبَعُ الْحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ فَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ ، ثُمَّ يَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْمَرَّةَ الْأُولَى».[48]

إذ تمثل هذه الوحدة التلفظية وحدة وصفية (كما تقدم) لم تشارك ذات النبي الكريم في أحداثها واكتفى بتصويرها كما هي، وكان ذلك النقل للوعظ والتوجيه والاعتبار.

– **النقل المحرفي:** إذا كان الرصد الموضوعي قد أوصل مواقفا عن طريق أسلوب الرسول صلى الله عليه وسلم فإن النقل المحرفي يقتضي نقل الملفوظات كما وردت دون تغيير، مثل قوله ﷺ: «فَقِيلَ لِي: خُذْ أَيُّهُمَا شِئْتَ» و«هُدِيتَ الْفِطْرَةَ أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَخَذْتَ الْخَمْرَ، غَوَتْ أُمَّتُكَ».[49]

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

2.2.4. الملفوظ الحسي والملفوظ المجرد :

خلال عملية الفصل بين الحسي والمجرد في نصوص الأحاديث، وجدنا ظاهرة بارزة جدا وهي خدمة الحسي للمجرد بصورة واضحة، والجدير بالذكر أن هذا العنصر اعتنى بشكل كبير بجانب التأويل وارتكز على مقوماته، ومن أمثلة ذلك:

تجلي الإيمان والحكمة وتجسيدها، وذلك من قوله ﷺ: «أُتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ إِيمَانًا فَغُسِلَ قَلْبِي ثُمَّ حُشِيَ»[50] ، فما نعرفه نحن البشر العاديون هو أن الإيمان والحكمة قيمتان ومطلبان مجردان، غير أنهما تجليا في شكل مادي واحتوته الآنية، ثم أفرغا في قلبه صلى الله عليه وسلم، دون البحث في صورة التجلي والتجسيد.

وكذلك ما نقله الرسول ﷺ عن المعذبين، فالأفعال التي عوقبوا عليها مفاهيم جسدت في أعمالهم وجسدت في مشاهد معبرة بشكل رمزي قابل للتأويل كما أولته الملائكة، وعبرت عنه في قوله: «أَمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الذي فِي الرَّوضَةِ فَإِنَّه إبراهيمُ ، وَأَمَّا الوِلدَانُ الذِينَ حَولَه فَكُلُّ مَولُودٍ مَاتَ على الفِطرَة»[51] ، إذ يحيل شخص إبراهيم عليه السلام على أصل المسلمين الأول، وتحيل كلمة (الولدان) على حداثة الولادة وفطرة بني آدم، وتحيل الروضة على استقرار حالهم، فامتزجت المفاهيم مدركة بالعقل والتصور، فنحن لم نر المشهد بل تخيلناه وفهمناه بالرجوع إلى تأويله.

وتؤدي علاقة التكامل بين الحسي والمجرد في هذه الأحاديث إلى فهم جوانب الإدراك بالحواس مع الفهم العقلي للكون، وكل من هذين الجانبين الخاصين في رحلة الإسراء والمعراج عبرا عن الحكمة التي زود بها النبي الكريم.

3.2.4. الملفوظ الجسدي والملفوظ الإيمائي:

مثل هذا الصنف لدى النبي ﷺ سمة تعبيرية بارزة، حيث كان يعبر عنه بأنساق لغوية عند اقتضاء الأمر ذلك، لأن لديهما من التأثير والتعبير ما لا يسكت عنه أثناء التحليل.

غير أن الواجب ذكره أن الملفوظات الجسدية والإيمائية ليست صادرة عن النبي الكريم فحسب، بل زاد على ذلك نقل بعض المشاهد الأخرى. وعليه تقسم هذه الملفوظات:

- **ما عبر عن النبي عليه الصلاة والسلام:** وهو كل ملفوظ يعبر عن حواسه أو حركاته أو أفعال بدنية صادرة عنه -عليه الصلاة والسلام- ومن أمثلته: «رأيت»،[52] و«فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ»،[53] وقوله واصفا طير الجنة:«يَا جِبْرَيلُ إِنَّ هَذِا الَطَير لنَاعِم »،[54] وقوله معبرا عن كيفية شق صدره: «فَفَرَجَ صَدْرِي ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي »،[55] وكل هذه الملفوظات عبرت عن تفاعل ووجود النبي ﷺ في الحدث ومعايشته لما فيه، وعلى المزايا التي أدركتها حواسه.
- **ما عبر عن أشخاص غير النبي صلى الله عليه وسلم:** فرحلة الرسول ﷺ بين الأرض والسماء كانت مملوءة بالأشخاص الذين مثلوا أطرافا في الحدث، ووصلت من خلال مشاهدة النبي الكريم لهم عدة رسائل، كما نقل النبي ما شاهده عنهم بالتجسيد اللغوي، ومثال ذلك: «فإذا أنا بأقوام مشافرهم كمشافر الإبل قال فتفتح أفواههم فيلقفون من ذلك الجمر، ثم يخرج أسافلهم فسمعتهم يضحكون»،[56] «إِذَا أَنَا بِأَقْوَامٍ بُطُونهمْ أَمْثَال الْبُيُوت ، كُلَّمَا نَهَضَ أَحَدهمْ خَرَّ»،[57] حيث عبرت هذه الملفوظات عن وضعيات جسدية لأشخاص شاهدهم النبي ﷺ ، ثم أعلم بتأويل هذه الوضعيات، إذ هم يمثلون (أكلة أموال اليتامى، أكلة الربا).

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

والملاحظ على الصنفين ما يلي:

- كون الملفوظات الجسدية المعبرة عن الرسول ﷺ قد اتصلت بـ(الإدراك- الفهم- التأويل- الكشف- المعرفة).
- كان إدراك الملفوظات المعبرة عن أشخاص غير الرسول ﷺ وانتقالها دليل على تحقق وظائفها السابقة.

4.2.4.الملفوظ الصريح والملفوظ الضمني:

اعتنت علوم الشريعة المختلفة بهذا الجانب في قراءة النصوص الشرعية وتأويلها، ولقد وردت ثنائية (صريح ضمني) (منطوق ومفهوم) على صور ملفوظات مختلفة في أحاديث الإسراء والمعراج، ونذكر من ذلك كقوله ﷺ: «حَتَّى ظَهَرْتُ الي مُسْتَوَى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الْأَقْلَامِ »، فهذه العبارة عند الوقوف على ظاهرها تدل على وجود كتبة كثر تصدر أقلامهم صريفا، لكن هذا الظاهر يزداد وضوحا إذا ما بحثنا في مفهومها الضمني، فهذه الأقلام تكتب ما ترصده الملائكة وما أمرها الله به، ويبحث عن هذا المفهوم الضمني بالتأويل والاستناد على معطيات خارج النص.

ومثال ذلك -أيضا- قوله: «فَأَوْحَى الله إِلَي مَا أَوْحَى »،[58] حيث يبرز منطوق هذا الملفوظ الصريح أن هناك وحيا إلهيا إلى الرسول الكريم، لكن هناك ملفوظا ضمنيا مفهوما يطلب تأويلا، ولقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [سورة النجم،10]. وفصل في تفسير هذه الآية بأن اختلف في نوع الأمر الموحى، فقد يكون آية قرآنية أو آية مادية، ويذكر في تفسير الجلالين أنه (لم يذكر الموحى تعظيما لشأنه). [59]

كما وردت في الأحاديث عدة ملفوظات فسرها أو أولها جبريل -عليه السلام- منها:

- تفسير اللبن بالفطرة السليمة والخمر بالغواية.
- تفسير خمش الناس لحومهم بأظفر من نحاس لهاتكي أعراض الناس.

وما دمنا في مقام الكشف عن المفهوم بدلالة المنطوق فلابد أن نشير إلى الغايات الحاصلة من ذلك:

- الوقوف على عظمة الله، فرغم معرفتنا بمواقف عديدة في الإسراء والمعراج إلا أن هناك ما يخفى ويتعذر على البشر الكشف عنه.
- صدق ومصداقية الرسول الكريم، حيث نقل الأحداث والأقوال كما هي، ولم يخفي انبهاره وعجز طاقته البشرية على فهم بعض الظواهر (المعراج- سدرة المنتهى).

5.2.4.الملفوظ الزماني والمكاني:

جميع أنواع الملفوظ المزدوجة تجمع بين طرفيها علاقة قد تكون تكاملا وتضادا...، في حين تجمع بين الملفوظ الزماني والمكاني علاقة التلازم وحتميته، غير أن عنصر الزمان والمكان في حادثة الإسراء والمعراج يتجاوزان الحدود العادية ويكتسبان صورة إعجازية هذه الصور التي تقتضي تجليا ملفوظيا معينا نكشف عن بعض حدوده في ما يلي:

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

– انحصار زمن الحدث (الإسراء) في ليلة واحدة، وهذا ما ذكرناه، ونحن نحدد زمان التلفظ في (أول الفصل)، حيث قالت أم هانئ: «لما صلى الصبح وصلينا معه قال: « يا أمّ هانِئٍ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَكُمْ العِشاءَ الآخِرَةَ كَمَا رأيْت بِهَذَا الوَادِي، ثُمَّ جِئْتُ بَيْتَ المَقْدِسِ فَصَلَّيْتُ فِيهِ، ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلاةَ الْغَدَاةِ مَعَكُمْ »،[60] ، إذا فوقت الإسراء حسب وقتنا في الحساب العادي، هو ليلة واحدة (بعد العشاء وقبل الصبح)، وهو ما يؤكده القرآن الكريم في قوله جلا وعلا في سورة الإسراء: **{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}**[سورة الإسراء، 01]، وتدل هذه الآية وكذلك حديث أم هانئ على انحصار المكان في حدود مكانية معلومة هي المسجد الحرام والمسجد الأقصى.

ولقد وقف العلم طويلا مع هذه العلاقة الإعجازية من ناحية عدم تحقق هذه الظاهرة في حدود حياة البشر العاديين، وهنا ندرك أن الزمن لم يكن زمنا عاديا وأنه مختلف عن ما نقيس ونعدد به في حساباتنا اليومية.

– انحصار زمن ومكان المعراج، حيث تقدم الأدلة النصية المختلفة أن المعراج أيضا حدث ليلا، وأن مداه المكاني محصور بين الأرض والسماء، وهو ما أكدته كذلك سورة النجم في قوله تعالى: **{ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى}**[سورة الإسراء الآية: 08-09].

ولإن كان البحث في طبيعة الزمن المستغرق في الرحلة الأرضية بين المسجدين (الحرام- الأقصى) رحلة إعجاز، فماذا عن رحلة من الأرض إلى السماء؟

ولقد تجاوز العلم مرحلة البحث عن وقوع الحادثة من عدمه إلي البحث في سرعة وزمن تحققه، فكان من أمثلة ما سيق في هذا المقام قول **كارم غنيم**: «إنه إذا تخيلنا أن صاروخا اقتربت سرعته من سرعة الضوء اقترابا شديدا، فإنه يقطع رحلة تستغرق 50 ألف سنة حسب الساعة الأرضية في يوم واحد لطاقم الصاروخ»، [61] أي لا سبيل للمقارنة بين:

– ما عاشه النبي ﷺ من أحداث بما يمكن أن يجربه شخص على الأرض.
– لا يمكن أن نقارن المدة الزمنية والمسافة بين الأماكن بما نعيشه نحن عليه.

إنما ذكر مقياس الليلة الواحدة هو مقياس أهل الأرض، وليس مقياس من عاش وزار أهل السماء.

والواضح من خلال ما تقدم أنه لابد من أخذ الزمان والمكان في الإسراء والمعراج بمراعاة ثلاثة اعتبارات:

– زمننا نحن البشر العاديون وكيفية قياسنا له.
– المكان بحسب إدراكنا البشري وكيفية إدراكنا له.
– المكان والزمان على اعتبارهما نقطة مستثناة في عالم الغيب الإعجازي.
– لعل هذا التحليل عميق وموسع عما نبحث فيه نحن كلسانيين، لكن ما نلاحظه ما صنعه الملفوظ من عامل صدق يخرج أسافلهم فسمعتهم يضحكون»،[62] ، «إِذَا أَنَا بِأَقْوَامٍ بُطُونهمْ أَمْثَال الْبُيُوت، كُلَّمَا نَهَضَ أَحَدهمْ خَرَّ»،[63] حيث عبرت هذه الملفوظات عن وضعيات جسدية لأشخاص شاهدهم النبي ﷺ ، ثم أعلم بتأويل هذه الوضعيات، إذ هم يمثلون (أكلة أموال اليتامى، أكلة الربا). والملاحظ على الصنفين ما يلي:

- اتصال الملفوظات الجسدية المعبرة عن الرسول ﷺ بـ(الإدراك- الفهم- التأويل- الكشف- المعرفة).
- كان إدراك الملفوظات المعبرة عن أشخاص غير الرسول ﷺ وانتقالها دليلا على تحقق تلك الوظائف السابقة.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

6.2.4.الملفوظ الصريح والملفوظ الضمني:

اعتنت علوم الشريعة المختلفة بهذا الجانب وقراءة النصوص الشرعية وتأويلها، ولقد وردت ثنائية (صريح ضمني) منطوق ومفهوم على صور ملفوظات مختلفة في أحاديث الإسراء والمعراج، نذكر نماذج عن ذلك كقوله ﷺ: «حَتَّى ظَهَرْتُ إلى مُسْتَوَى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الْأَقْلَامِ »، فعند الوقوف على ظاهر هذه العبارات نجدها تدل على وجود كتبة كثر تصدر أقلامهم صريفا، لكن هذا الظاهر يزداد وضوحا إذا نحن بحثنا في مفهومها الضمني فهذه الأقلام تكتب ما ترصده الملائكة وما أمرها الله، إذ يحث هذا المفهوم الضمني على التأويل والاستناد على معطيات خارج النص لفهم أكثر.

كما أن هناك عدة مفردات وعبارات واردة في الأحاديث أولت وفسرت من قبل جبريل في حد ذاته منها:

- تفسير اللبن بالفطرة السليمة والخمر بالغواية.
- تفسير خمش الناس لحومهم بأظفر من نحاس لهاتكي أعراض الناس.

وما دمنا في مقام الكشف عن المفهوم بدلالة المنطوق فلابد أن نشير إلى الغايات الحاصلة من ذلك:

- الوقوف على عظمة الله، فرغم معرفتنا بمواقف عديدة في الإسراء والمعراج إلى أن هناك ما يخفى ويتعذر على البشر الكشف عنه.
- صدق ومصداقية الرسول الكريم حيث نقل الأحداث والأقوال كما هي، ولم يخفي انبهاره وعجز طاقته البشرية على فهم بعض الظواهر والمظاهر (المعراج- سدرة المنتهى).

5. تفاعل عناصر السياقات اللغوية وغير اللغوية في أحاديث الإسراء والمعراج:

1.5. الشخص الركيزة (الضمير):

لا شك أن الشخص الأساسي في أحاديث الإسراء والمعراج هو شخص النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي يعد الذات بكل ما يمكن أن تتصف به، وهي تتصل وتحقق موضوعها، ويمكن أن تقف على ذات الرسول -عليه الصلاة والسلام- على اعتبارين هما: (ذات الحادثة- ذات الحديث) أي (ذات تلفظ- ذات داخل ملفوظ) ونكشف ذلك كالآتي:

1.1.5. ذات الحادثة (داخل الملفوظ):

عبر الملفوظ عما دار من أحداث ومحطات عاشها وعايشها النبي الكريم؛ حيث كان للأداء اللساني دور كبير في هذا التعبير من خلال:

- **ضمير المتكلم متصلا ومنفصلا:** أدى هذا الضمير دور التعبير عن المعايشة، ومن أمثلة ذلك قوله ﷺ: «بَيْنَمَا أَنَا فِي الْحَطِيمِ »،[64] حيث مثل ضمير المتكلم "أنا" العلامة الأولى عن الشخص ووردت في بداية الحديث كدليل على محوريتها.

أما الضمير المتصل فقد جاء في صور عدة منها:

✓ اتصاله بالحرف: مثل قولهﷺ: «حِينَ أُسْرِيَ بِي»،[65] ودل هذا الاتصال على جانب الخوارق والأسباب الخفية التي تحكم هذا الحدث، وكذا مسؤوليته إزاء تكييفه كقوله ﷺ: «فُرِضَت عَلَي الصَّلَاة ».[66]

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

✓ اتصاله بالفعل: مثل قولهﷺ: «ثم أُتِيتُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ...»،[67] فدل هذا الاتصال على كون النبي ﷺ هو المقصود بهذه الأحداث، وأنها كانت لأجله، وأدلة ذلك كثيرة في الملفوظ الإسنادي والقضوي.

✓ اتصاله بالاسم: كقوله عليه الصلاة والسلام: «غُسِلَ صَدْرِي »،[68] وتوحي بحالة الإدراك والوعي بالذات والحدث معا على الرغم أن هناك مواقف خارقة، وهذا دليل على ما زود به ﷺ من إيمان وحكمة.

- **ضمير المخاطب (تحول الدلالة):** تحولت الذات النبوية في بعض مقامات الملفوظ إلى مخاطب مقصود بخطاب ما، وذلك مثل قول جبريل: «هَذَا مُوسَى فَسَلِّمْ عَلَيْهِ »،[69] ويوحي هذا بكون الذات النبوية ذات موجهة حيث أصبح مخاطبا من قبل جبريل، ليريه مشاهد ومواقف مختلفة.

وإلى جانب التوجيه جاءت الضمائر (المخاطبة) لتبرز مكانة النبي ﷺ رسولا مكلفا ونبيا صالحا في قول جبريل بعد اختيار النبي إناء اللبن: «هُدِيتَ الْفِطْرَةَ أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَخَذْتَ الْخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ »،[70] حيث مثل الضمير "أنت" التأكيد وقصديته التوجه إلى المخاطبة، ومثلت "كاف" الخطاب انتساب أمة كبيرة إلى المخاطب، بما تحمل الدلالة من مسؤوليات وكأنها تكمل عبارة التي كان يرحب الأنبياء به في قولهم: «مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ » «مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ ».[71]

- **ضمير الغائب واحتواء الذات:** ذات النبي ﷺ كانت معلومة من قبل الله جل وعلا وجبريل عليه السلام، غير أن الملائكة في السماوات لم تكن تدر وتعلم بذلك، وهو ما جعلهم يتحدثون عنه بصيغة الغائب مثل: قال جبريل لخازن السماء: «افتح، مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ جِبْرِيلُ ، قَالَ هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ ، قَالَ جِبْرِيلُ: نَعَمْ مَعِيَ مُحَمَّدٌ ، قال: بُعِثَ إِلَيْهِ ، قَالَ نَعَمْ»،[72] ثم يتضح من العبارات ما كان عليه الخازن من مرحلة اللاعلم بالشيء أو الشخص النبي حين رد على جبريل: «فنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ »،[73] إذ يمثل هذا الحدث حدثا عظيما في السماوات العلا، ولقد تكررت مثل هذه الملفوظات فيها جميعا.

2.1.5. ضمير الحدث (فعل التلفظ):

قلنا أن فعل التلفظ يؤثر في الملفوظ من بدايته إلى نهايته، ويكسبه مقومات (النص- الخطاب) جميعها، وهذا لا ينفي كون فعل التلفظ في حد ذاته تتجلى فيه الذات باعتبارها ذاتا مخاطبة بعد الحدث، ويتجلى ذلك في:

- **تقديم الذات للحدث:** ومن أمثلة ذلك ما بدا عن حديث سمرة بن جندب الذي أبرز حديث النبي ﷺ عن الحدث بعد وقوعه، إذ يقول: «قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ لِأَصْحَابِهِ هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا فَيَقُصُّ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُصَّ وَإِنَّهُ قَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ»[74] .

ومثل هذا الملفوظ الحد الفاصل بين ما كان عليه الرسول ﷺ من مستوى التلفظ إلى إنشاء الملفوظ.
وكذلك قوله ﷺ: «لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الْحِجْرِ ، وَقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ ، فَسَأَلَتْنِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أُثْبِتْهَا ، فَكُرِبْتُ كُرْبَةً مَا كُرِبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، فَرَفَعَهُ اللَّهُ لِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلاَّ أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ »،[75] ويدل هذا الملفوظ على الفصل بين ما وقع وما يروى.

- **دعم الشخص (الركيزة):** ننطلق في هذا العنصر من ما ختمنا به العنصر السابق وهو حديث النبي ﷺ عن دعم الله تعالى له، بإبراز تفاصيل بيت المقدس في الحجر يراها كما هي، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا أن رحلة الإسراء والمعراج في حد ذاتها دعم له، ﷺ، وكذلك من سبل دعم الله، التخفيف على الأمة؛ حيث كانت الصلوات المفروضة خمسين صلاة، وأصبحت بتخفيف الله خمس صلوات.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

2.5. الزمان وتجلياته:

كانت للوقت خصوصية كبيرة في حادثة الإسراء والمعراج، وبينت مدى البعد الإعجازي، كما بينا في الملفوظ الزماني والمكاني، وسنفرد فيما يلي قراءة لملفوظات الزمان في الأحاديث وفق الأصناف الزمن:

1.2.5. الزمن الطبيعي: هذا الزمن هو زمن حقيقي بمجرد أن نقول أن الحدث متعلق بشخص من الواقع وهو النبي ﷺ.

2.2.5. الزمن التاريخي: إن خط الزمن في الأحاديث يدل على الاسترجاع، ورواية الحدث السابق، وهذا يقتضي توظيف دلالة ملفوظية خادمة لذلك، وفي مقدمتها:

- **الزمن الماضي:** وهذه أغلب الأفعال الواردة (أتاني- أتيت- شق- غسل- صليت- رأيت- جاء- فتح- صعدت) وغيرها كثير، وكانت الدلالة حقيقية.
- **دلالة الفعل صيغة ومعنى:** لعل أبرز فعل احتوى هذه الدلالة وحققها الفعل (انطلق) الذي عبر به صلى الله عليه وسلم في سائر مراحل سيره إلى بيت المقدس، حيث كان يقول:

«قَالَ لِي انْطَلِقْ فَانْطَلَقْنَا»، فهذا الفعل يدل على دلالتين الأولى هي الوزن، فصيغة انفعل تدل على التحول والتبدل، وكذلك على اتساع مدى الفعل، والثانية هي المعنى، فالفعل انطلق ومادته (طلق) يدل على اندفاع وتدفق وانسراح سريع، فأوحت الصيغة والمعنى بما كنا قد وضفنا به الزمن من إعجاز ومضية وتسارع.

- **دلالة أحرف العطف على خط الزمان:** استعمل النبي ﷺ أدوات الربط لبناء السرد، وهو ما وقفنا عليه في عنصر الترابط الملفوظي، ونلاحظ اعتماده على الرابط "ثم" الذي أدى دور الدلالة على التعقيب والترتيب الزمني- التباعد الزمني بين المراحل رغم تعاقبها.

ولقد تكرر هذا الرابط في جميع مراحل الانتقال السماوي في قوله: «وثُمَّ صَعِدَ بِي» وكأن المسافات متساوية أو متعادلة. وليست هذه الروابط الوحيدة، بل استعمل "فاء" للدلالة على تسارع أكبر وموالاة وكذلك "فلما" التي تدل على الغاية الزمانية لكنها غير محددة كقوله ﷺ: «فَلَمَّا خَلَصْتُ».[76]

والملاحظ في جميع جميع هذه الملفوظات دلالتها على التوالي الزمني والترتيب الكيفي، دون ذكر الكم، وهذا يعني أن الكم هنا متميز، لا تدركه المقاييس العادية.

3.2.5. زمن الخطاب:

بدا زمن الخطاب واضحا بمجرد تحديده ﷺ لزمن الحادثة إذ حكاها بعد حدوثها بليلة واحدة وقبلها، وهو ما حدده حديث أم هانئ الذي وقفنا عليه، وقد حدد زمن الحادثة انطلاقا من زمن الخطاب.

3.5. المكان:

سنقف عند المكان في نقطتين هما:

1.3.5. فضاء التلفظ والملفوظ: كان مكان تلفظ النبي ﷺ لأول مرة هو بيت أم هانئ كما ذكرت في قولها: «نَامَ عِنْدِي تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي بَيْتِي » ثم قال يا أم هانئ: «لَقَدْ صَلَّيْتُ لْعِشَاءَ الآخِرَةَ مَعَكُمْبِهَذَا الْوَادِي »،[77] وهناك مكان تلفظ ثاني وهو المكان الذي كان فيه الحجاج بينه وبين قريش في قوله: «لَمَّا كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ قُمْتُفِي الحِجْرِ...».[78]

أما أمكنة الملفوظ فهي كثيرة بدأت من بيت أم هانئ إلى بيت المقدس، إلى السماوات العلى، ثم العودة إلى المنطلق.

2.3.5. طبيعة الفضاءات والأمكنة:

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

عندما نتحدث عن الطبيعة فإننا نتحدث عن طبيعتها بالنسبة للمتلفظ والمتلفظ له (سامعا وقارئ)، ولاحظنا على الأماكن المذكورة في الأحاديث كونها:

- **أمكنة معروفة (من قبل المتلفظ له):** إما بزيارتها وإما بالسماع عنها، وهو ما حدث خلال اختبار صدق زيارة النبي الكريم لبيت المقدس من عدمه من قبل من زاره وعلم تفاصيله لقوله ﷺ: «فجلا لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن تفاصيله وأنا أنظر إليه».
- **أمكنة غير معروفة (من قبل المتلفظ له):** حيث ذكر الرسول الكريم في رحلة المعراج أماكن لم يكن لغيره أن يراها أو يدركها من أمثلة ذلك:
  - السماوات السبع.
  - السماء الدنيا.
  - السماء الثانية.
  - السماء الثالثة.[79]
  - البيت المعمور: «والبيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه إلى يوم القيامة».[80]

6. تمظاهرات السياقات غير اللغوية في أحاديث الإسراء والمعراج:

أبرزنا عبر محطات عديدة صلة المحيط والملابسات بتشكيل الملفوظات، وبروز ظواهر ملفوظية معبرة عن دواعي وأبعاد التلفظ، ثم كشفنا في مرحلة سابقة عن عناصر التلفظ (كفعل لساني) عن طريق معينات (الشخص- الزمان- المكان)؛ والتي زادت مقامات التلفظ وضوحا.

أما في هذه المحطة فسنمد حبل الوصل بين الملفوظ كمادة لسانية ومرجعيات التلفظ وسياقاته استثمارا لما مدتنا به معينات التلفظ، وذلك على النحو التالي:

1.6. السياق وآفاق التأويل:

لا شك أن حدثا عظيما ومعجزة كالإسراء والمعراج، حدث محاط بظروف وسياقات خاصة وكثيرة، بل إن كتب تفسير القرآن والحديث معا تجمع على هذا وتقف عنده، وسنقف عنده بدورنا لكن وفق المخطط الذي حددناه سابقا (الانطلاق من الملفوظ، استقراء المعينات، تحري أثر السياقات) وذلك حسب معيار تصنيفات السياقات:

1.1.6. السياق النفسي والاجتماعي:

في نصوص الأحاديث إشارات لفظية واضحة تدل على أن النبي ﷺ أسري به في مرحلة كان في أمس الحاجة إلى التفريج والدعم، ومن ذلك تنقية الله تعالى صدره.

ولقد أثبتت مصادر السيرة النبوية -فعلا- أن ﷺ كان قبل الإسراء والمعراج ضائق الصدر يشكو ضعف نفسه التي أحاط بها كيد الحاسدين وتكذيب المشركين، وهو ما عبر عنه ﷺ في دعاء الطائف ونصه: «اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي , وَقِلَّةَ حِيلَتِي , وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ , يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ أَنْتَ رَبّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

رَبّي إِلَى مَنْ تَكِلُنِي إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهّمُنِي؟ أَمْ إِلَى عَدُوّ مَلّكْتَهُ أَمْرِي ؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِك عَلَيّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي ، وَلَكِنّ عَافِيَتَك هِيَ أَوْسَعُ لِي...»،[81] إلى آخر الدعاء.

ولو رجعنا إلى سبب هذا الأثر النفسي وهو الضغط الاجتماعي الذي عبر عنه ملفوظ (هواني على الناس) وهي نفسها الجماعة التي كذبت الرسول الكريم حتى بعد الإسراء والمعراج، حين ذكرهم بعبارة «كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ»، فقد كان السياق النفسي دالا على علاقة متوترة بين الرسول ﷺ وقريش يشوبها عدم الاعتراف بالرسالة، وعلى طرف موازٍ كان المجتمع الصغير الذي دعم النبي ﷺ ممثلا في آل بيته وفي الصحابة.

ويكفينا دليلا على ذلك ما ورد في خبر تصديق أبي بكر له، حيث يقول الشيخ محمد العريفي: «إنه وفي عز تكذيب قريش للنبي عليه الصلاة والسلام قال أبو بكر، إن قال ذلك فقد صدق، وكان ذلك مرد تلقيبه -رضي الله عنه- له بالصديق، ولقد كان لهذا الموقف دعم نفسي قوي لسيدنا محمد».[82]

فكان لذلك بعد نفسي واضح تجلى في الوقوف إلى جانب النبي ﷺ لتحمل رحلة الإسراء إيحاءات الترفيه والراحة، خاصة وأنها كانت ليلا، والليل مبعث الهدوء والسكينة، وهو على حسب مصادر السيرة من أحب الأوقات للنبي ﷺ، وهي كذلك (رحلة الإسراء والمعراج) صورة عن قدرة الله الإعجازية التي تقف إلى جانب النبي الكريم وتشد عضده.

2.1.6. السياق الديني:

إننا أمام نص شرعي، فمن البداهة أن تكون له سياقاته الدينية التي ساهمت في تشكله، بل ودفعت لوجوده، فالغايات الدينية والعقائدية تجاوزت حدود وجود النص إلى حدود حدوث المعجزة المعبر عنها بنص، والملاحظ من خلال نص الحديث أن الرحلة ختمت بفرضه -جل وعلا- للصلاة، في قول الرسول ﷺ: «فُرِضَت علي الصَّلَاة »،[83] وما دامت الصلاة عماد الدين؛ فإنه يمكن عد معجزة الإسراء والمعراج مرحلة إرساء دعائم الدين الإسلام وتثبيت ركائزه. وبهذه الفكرة نعقد علاقة بين مفهوم الصلاة وهذه الرحلة:

- إن الصلاة صلة بين العبد وربه.
- إن رحلة الإسراء والمعراج كانت صلة بين العبد وربه
- الرحلة كانت بين صلاتين (صلاة الليل والنهار).
- الرحلة توقف فيها الرسول الكريم عدة مرات للصلاة (في بيت المقدس، وفي البيت المعمور).

غير أنه لابد من الإشارة إلى أن أحاديث الإسراء والمعراج تضمنت عدة أحكام شرعية مستقاة، ويأتي في أولها تحريم الخمر لكونها منافية للفطرة الإسلامية السليمة. والدقيق في التأمل يلاحظ أن هذا البند جاء في سياق فرض الصلاة لأنهما أمران لا يلتقيان، وهو ما أثبته القرآن الكريم لقوله تعالى: **{**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴿43﴾**}][**﴿سورة النساء الآية: 43].

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

إلى جانب نبذ الكذب- الربا- الزنا وجميعها منكرات نهى الله تعالى عنها وحرمها، وجاءت صور المعاقبين كما قلنا للتأكيد على ذلك والترهيب.

فإذا إن أحاديث الإسراء والمعراج تعكس صورة السياق الديني الذي يعبر عن مرحلة ارتكاز الدين وتثبيت أركانه.

3.1.6. السياق الفكري:

تحاط الحياة الدينية والعقائدية دائما بأبعاد فكرية عديدة قد تكون موافقة لها ومؤيدة، وقد تكون على العكس من ذلك، ولقد بينت نصوص أحاديث الإسراء والمعراج الأبعاد الفكرية التي كانت محيطة بالحياة الدينية في تلك الفترة.

إن المسألة الفكرية التي كانت مواقف الإسراء والمعراج تمثلها لفظا في الأحاديث هي مسألة (الممكن والمعجز)، حيث مثل الممكن إرادة الله الذي إن قال للشيء كن فيكون، ويصدر عنها الفعل من العدم، وهذا الممكن هو بالنسبة للبشر معجز خارق لقوانين الطبيعة متجاوز لها.

وقد أكد التحليل الملفوظي ذلك في مواضع عدة، كارتقاء النبي ﷺ إلى مراتب لا يصل إليها بشر سواه، فقد ورد في صحيح البخاري، حدثنا طلق بن غنام، حدثنا زائدة عن الشيباني قال: سألت زرا عن قوله تعالى: {فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴿09﴾ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴿10﴾}[سورة النجم الآية: 08-09] قال اخبرنا عبد الله إنه محمد ﷺ ، رأى جبريل له ستمائة جناح.[84] وهذه المراتب التي وصل إليها النبي الكريم مراتب لم يستوعب الزائرون للفضاء، مراتبا أقل منها بكثير مثل ما قال زغلول النجار: «أول رجل تجاوز المائتي كيلومتر أصابه شيء من الذهول وقال كلمة أو جملة مبهرة قال كأني فقدت بصري أو اعتراني شيء من السحر»[85] .

في حين نوه القرآن الكريم إلى ما أوتيه النبي ﷺ خلال عروجه لم يزغ بصره وجاء ذلك في سورة النجم لقوله تعالى: {مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴿17﴾} [سورة النجم الآية: 17]، فكانت هذه ميزة خاصة به عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

فقد ورد في القرآن ما يؤكد ذلك في قوله تعالى: {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿14﴾ لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿15﴾}[سورة الحجر الآية: 14-15].

ويعد هذا طرحا للدقة العلمية التي اكتنفت جانبا من جوانب المعجزة عموما، وهي ليست مقصودة لذاتها بل هي إبراز لنوعية الجدل الفكري الذي فتحته، فكانت المواقف الفكرية على وجهتين:

- وجهة التصديق والإيمان القبول.
- وجهة التكذيب والكفر والرفض.

وهذه الحكمة من أعظم الحكم التي تصلنا عبر هذه المعجزة، فالإيمان هو الفارق الوحيد الذي يحدد إلى أي الوجهتين يمكن أن ينتهي العبد، إذ كان الإيمان والحكمة زاد النبي الأول في رحلته، وهذا ما تطرقنا إليه ملفوظيا.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

7. وساطة الإحالة والمرجعية بين السياقات اللغوية والسياقات غير اللغوية في أحاديث الإسراء والمعراج:

سنخصص الحديث ههنا بالإحالة الخارجية التي تشير فيها الملفوظات إلى مراجع خارج النص، والتي نصنفها كالآتي:

1.7. إحالة مراجعها معروفة: ونقصد بها كل الأشخاص والأشياء والأفعال التي حصلت معرفتها لدى المتلقي قارئا كان أو سامعا، سواء أكانت المعرفة حاصلة عن الحواس أو التناقل، ومن أمثلتها: بيت المقدس، بمجرد ذكر الرسول الكريم عبارة: «صَلَّيْتُ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ».

«صَلَّيْتَ فِي بَيْت لَحْم»،[86] يعود بنا الملفوظ إلى هذا المكان حسب مصادر معرفتنا له، وكذلك ذكره للبراق، فإذا كان بعض الصحابة ونحن كذلك لا نعرف هذه الدابة، فمنهم من عرفها وعرّفها، من بينهم أنس - رضي الله عنه- في قولهﷺ: «نَعَمْ يَضَعُ خَطْوَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ». وكذلك الحال بالنسبة للقافلة التي لقيها الرسول ﷺ ، فهي عند من رآها وانتظرها مرجع معروف، وإن جهلت عند غيرهم، والأمثلة في هذا المقام كثيرة.

2.7. إحالة مراجعها غير معروفة: حيث كان النبي يذكرها، ويذكر إما وصفا دقيقا لها، أو ما يقاربها، ليحصل بها الفهم وتتحقق المعرفة، مثل سدرة المنتهى: «ثم صعدت سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى فتغشاني فَكَانَ بيني وبينه قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى »[87] .

وكذلك وصفه للبيت المعمور الذي تجمع تعريفاته على أنه مقابل الكعبة في السماء، لا سيما أن سيدنا إبراهيم -عليه السلام- هو النبي الذي لقيه سيدنا محمد عنده، كما أنه واضع قواعد الكعبة المشرفة في الأرض، لقوله تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[سورة البقرة الآية: 126]، وجاءت صورة البيت المعمور في الأحاديث كما ذكرنا سابقا.

وإن كانت مسألة معرفة المراجع من عدمها مسألة معيارية على مستوى الأشخاص في بعض الأحيان، فإنها من ناحية أخرى تعود إلى عالم الغيب وعالم الشهادة، فالإدراك والمعرفة بالحواس تخص كل ما هو موجود في عالم الشهادة، وكل ما هو متصور يعود إلى عالم الغيب الذي لا يصلنا عنه شيء إلا بالنصوص المقدسة.

وخلاصة القول إن الظواهر الملفوظية في أحاديث الإسراء والمعراج كثيرة، ومعبرة عن ثراء الأداء الكلامي للنبي صلى الله عليه وسلم واحتواءه على تفاصيل خاصة، لها دورها وفاعليتها في إنتاج الخطاب اللغوي وفي تلقيه، وجب الوقوف عليها من أجل فهم دلالاته الظاهرة والخفية، والمظاهر الإعجازية الناجمة عن النبوة، واجتماع العلم واللغة والدين في شخص واحد.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

8. خاتمة :

في الختام يمكننا القول: إن السياق يمثل عنصرا أساسا في إنتاج الملفوظات، لذلك لا يجدر بنا إغفاله في تحليلها إذا ما أردنا الكشف عن جميع جوانبها، فلكل ملفوظ سياق داخلي ويمثل بنيته اللغوية، وسياق خارجي ويمثل مجموع عناصر البيئة التي تنتجه، لذلك تجاوز التحليل الملفوظي في اللسانيات التداولية في مقاربته للنصوص والخطابات مجرد البحث في السياق اللغوي إلى تجليات السياق وتمظهراته.

كما تجدر الإشارة إلى أهمية تصنيف الملفوظات في تحليل الأنسجة اللغوية، والكشف عن مدى تفاعلها فيما بينها ضمن أنساقها الداخلية.

وقد مثل حديث الإسراء والمعراج ملفوظات جاهزة ومثالية لمثل هذا التحليل، لما تكشفه أصنافها من دلالات لغوية وما تحيلنا إليه من سياقات خارجية بمختلف عناصرها، من زمان ومكان وشخص... وما تتميز به من تداخل وانسجام فيما بينها، وتجلي ذلك في تفاعل الملفوظات وتنوعها وانسجامها.

ولا يخفى عن هذه الملفوظات ارتباطها الواضح بالدواعي الخارجية لانتاجها، والمتمثل في الجو العام الذي أحاط بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل وبعد تجربته مع حادثة الإسراء والمعراج، والتي نقلها الحديث على شكل ملفوظات متنوعة، لعبت وساطة الإحالة والمرجعية دورا بارزا في التفاعل بين سياقاتها اللغوية، وانسجامها مع بعضها البعض وكذا مع السياقات الخارجية، مما يضمن تحقق مبدئي التلاحم والتلازم، ويجعل لنص الحديث وحدة دلالية.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

المراجع

[1] Bakhtine, Le marxisme et la philosophie du langue, Essai d'application de la méthode sociologique en linguistique, p124
[2] رايص نور الدين، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، مطبعة سايس، فاس، المغرب، ط1، 2007، ص85.
[3] بايون براول وسلفر جيل، موسوعة المصطلحات اللسانية، ترعمر النقاش، بيروت، لبنان، 2000، ص177.
[4] باتريشيا فان هاي، حتى نتجاوز البنيوية، تر: جاد عوض، ديوان الطباعات الجامعية، عمان الاردن، 2015، ص100.
[5] E, benvénist, problems de linguistique, paris,1966,p73
[6] جون غوركو سيمون، من الجملة إلى الملفوظ، تر، علي عياد، بغداد، العراق، ط1، 2008، ج2، ص48.
[7] أحمد ابن فارس مقاييس اللغة، تح عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1979، ج3، ص117.
[8] باتريك شارودو، دومنيك مانغو، معجم تحليل الخطاب، تر عبد القادر المهيري، حمادي صمود، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2008، ص133_134.
[9] Jean Dubois et otres, Dictionnaire de linguistique et des sciences du langue , Larousse, France, 1999, pp120_121 .
[10] جون ليونز، نظرية المعنى عند فيرث، تر عبد الكريم مجاهد، مجلة الفكر العربي، ع78، 1994، بيروت، ص25.
[11] ينظر: أحمد غزاوي، آليات التعبير، دار جيل، دبي، الإمارات، 2000، ص65
[12] ينظر: جميل حمداوي، أنواع الملفوظ السردي في القصة القصيرة جدا، المغرب، 2014، ص3. شبكة الألوكة.
[13] المرجع نفسه،آ ص4.
[14] المرجع نفسه، ص5.
[15] الهادي السنوسي، التأسيس لأصناف الملفوظات عند جميل حمداوي، مجلة آراء في التحليل اللغوي، مخبر الدراسات والبحث، الدار البيضاء، العدد2081، ص3.
[16] المرجع نفسه، ص4.
[17] ينظر: كمال عطوان، تجليات البحث الألسني في بنية ومعاني اللغة العربية، دار التقليد، تونس، ط2012، ص45.
[18] جميل، حمداوي، المرجع السابق، ص12
[19] عبد الجليل مرتاض، الوظائف النحوية على مستوى النص، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص151.
[20] جميل، حمداوي، المرجع السابق، ص07.
[21] شادية العمري، الإيماء واللغة، قفصة، تونس، 2009، ص20.
[22] جميل، حمداوي، المرجع السابق، ص08.
[23] ينظر: أبو هني الدين الرفاعي، التجربة النحوية المغاربية في التحليل الملفوظي، دار الإسراء، بغداد، العراق، 2016، ص33.
[24] عبد الله البخاري: صحيح الأحاديث النبوية، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، ط2004، ص: 682.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

[25] محمد بن هشام، السيرة النبوية، تح: محمد علي القطب، ومحمد عليبلطة، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2001، ج1، ص46.
[26] زكي الدين بن عبد العظيم المنذري مختصر صحيح مسلم، بيروت لبنان، ط1 2001 ص 44.
[27] عماد الدين ابن كثير: تفسير القران العظيم، تح: سامي بن محمد السلام، دار صادر، بيروت، ص: 244.
[28] البخاري: مصدر سابق: 68.
[29] بن هشام: مصدر سابق، ص: 47.
[30] البخاري، مصدر سابق، ص68.
[31] بن هشام: مصدر سابق، ص: 47.
[32] نفسه، ص46.
[33] عبد الله البخاري: مصدر سابق، ص: 1246
[34] نفسه.
[35] البخاري، مصدر سابق، ص 66.
[36] نفسه ، ص: 67.
[37] نفسه.
[38] زكي الدين عبد العظيم المنذري: مختصر صحيح مسلم، بيروت، لبنان ط1، 2001، ص 42 43.
[39] البخاري: مصدر سابق ، ص 67.
[40] مسلم بن حجاج بن مسلم: صحيح الأحاديث النبوية، شرح الإمام الدمشقي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط 1954، ص 171
[41] البخاري: مصدر سابق، ص66.
[42] المصدر نفسه ، ص 69.
[43] المصدر نفسه ، ص 68.
[44] مسلم: مصدر سابق، ص 147.
[45] المصدر نفسه، ص 162.
[46] البخاري: مصدر سابق ، ص 1247.
[47] المصدر نفسه ، ص 68.
[48] المصدر نفسه ، ص 1246.
[49] زكي الدين عبد العظيم المنذري: مصدر سابق، ص 44.
[50] البخاري: (ذ1)، مصدر سابق ، ص 67.
[51] المصدر نفسه، ص 1246.
[52] المصدر نفسه ، ص 838.
[53] بن كثير: مصدر سابق ، ص 238.
[54] البخاري، مصدر سابق، ص 75.
[55] مسلم: مصدر سابق، ص 170.
[56] بن كثير: مصدر سابق ، ص 244.
[57] المصدر نفسه، ص 243.
[58] نفسه، ص 236.
[59] جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي: تفسير الجلالين، مكتبة المثنى، بيروت، لبنان، د ط، ص 697.
[60] ابن هشام: مصدر سابق، ص 45.
[61] كارم غنيم: معجزة الإسراء والمعراج، مجلة روائع فكرية، بيروت، لبنان، ع138، ص 4.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

[62] البخاري: (ذ1)، مصدر سابق، ص 66.
[63] زكي الدين عبد العظيم المنذري: مصدر سابق، ص 44.
[64] البخاري، مصدر سابق، ص66.
[65] زكي الدين عبد العظيم المنذري: مصدر سابق، ص 44.
[66] البخاري: مصدر سابق ، ص68.
[67] المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.
[68] المصدر نفسه، ص67.
[69] المصدر نفسه، ص68.
[70] زكي الدين عبد العظيم المنذري: مصدر سابق، ص 42.
[71] البخاري: (ذ1)، مصدر سابق، ص 67.
[72] زكي الدين عبد العظيم المنذري: مصدر سابق، ص 42.
[73] البخاري: مصدر سابق، ص 67.
[74] المصدر نفسه، ص1246.
[75] زكي الدين عبد العظيم المنذري: مصدر سابق، ص 45.
[76] البخاري، مصدر سابق، ص683.
[77] بن هشام: مصدر سابق، ص: 45.
[78] البخاري: (ذ1)، مصدر سابق ، ص 66.
[79] مسلم: مصدر سابق، ص 170.
[80] بن كثير: مصدر سابق ، ص 244.
[81] صفي الدين المباركفوري: الرحيق المختوم، دار الوفاء، المنصورة، مصر ط1، 2004، مصدر سابق، ص 125.
[82] حمد العريفي: قصة الإسراء والمعراج، محاضرة سمعية بصرية.
[83] عبد الله البخاري: مصدر سابق، ص 69.
[84] البخاري: مصدر سابق، ص 884.
[85] زغلول النجار: من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، تقديم أحمد فراح، مكتبة الشروق، ط2، 2008، ج4، ص 10.
[86] بن كثير: مصدر سابق، ص 245.
[87] نفسه، ص 244.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.